التوسل والاستغاثة

بالنبي ﷺ

وبالأولياء والصالحين

"سؤال وجواب"

أحمد طه





السؤال الأول: لو قال قائل: "يا جيلاني أو يا بدوي ارزقني ولداً أو اخلق لي"، هل يجوز أن يُتأول كلامه أنه يقصد يا جيلاني اشفع لي عند الله تعالى أن يرزقني أو يخلق لي كذا وكذا؟ أم يُعتبر هذا الدعاء من الشرك؟

وهل الولاية التكوينية للأئمة عند الشيعة، (والتي تعني: القدرة والسلطة الخاصة التي يمنحها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للأئمة على التصرف في الأمور الكونية، والتأثير في الأسباب والمسببات والتصرف في ذرات الكون وخرق القوانين الطبيعية) هل هي شرك مطلق؟

الجواب: الدعاء على هذا النحو المذكور هو: من الأدعية الباطلة، نُحذر منه، ولا يجوز على هذا النحو؛ فقد يكون ذريعة للشرك، واعتقاد النفع والضر فيهم.. فما يكون من أفعال العبادة: كالدعاء والنذر والذبح والطواف والسجود لا يكون إلا لله وحده لا شريك له، ولا تُصرف إلا لله.. هذا من حيث **الدعوة والتربية**.

أما من **حيث إجراء الأحكام**: فهذا مما يجب التنبه له والتدقيق فيه.. إذ غالباً ما يغلب على هذا النوع من الناس الجهل والسخف واتباع السفهاء، وهذا مما يجب العمل على رفعه، وتعليم الناس صحيح دينهم، وقطع دابر الدجاجلة والمنافقين والمنتفعين من وراء المقامات والموالد وصناديق النذور، الذين يقومون بتقزيم وتشويه الدين بمثل هذه الممارسات الباطلة المُفضية إلى الشرك، بالإضافة إلى الممارسة الفاضحة في الموالد من: الرقص الهستيري، والاختلاط الماجن، والدروشة، والشعوذة، واتخاذ الدين لعباً ولهواً، ومنهم من يعاني أمراضاً نفسية يظنها وجداً وعشقاً!! هذا غير السلوكيات غير الأخلاقية المنحطة، التي لا تمت للدين، ولا للآداب بصلة.

مع ملاحظة: أن الأنظمة الفاسدة الباغية في بلادنا وأجهزة الاستخبارات العالمية تُشجع مثل هذا النوع من الطقوس والاحتفال بالأضرحة والموالد والمقامات؛ ليتحول الدين إلى مجرد ساحة رقص، وعبث، ودعاء الأموات، والسجود على أعتابهم! وحركات هستيرية يختلط فيها ذكر الله بممارسات قبيحة، وأفعال محرمة وباطلة وشركية؛ وذلك لإلهاء الناس عن قضايا دينها المصيرية، وعن مقاومة الظالمين والمفسدين.. وإفساد مجتمعهم وذواتهم بمعتقدات وممارسات تضرب أصول الدين من قواعده.

ونفس الكلام عن الولاية التكوينية عند الشيعة، فليس في الإسلام عبادة الأشخاص، فلا وثنية ولا شرك في الإسلام، بل هو التوحيد المطلق الخالص لله، بلا شريك، ولا ولي، **ولا شيء سوى مقام العبودية لكل الخلق أمام مقام الألوهية لله الواحد القهار.**

ومقام التوحيد مقام عظيم شريف لا يمس بأي شبهة من شرك، حتى ولو كانت الحلف بغير الله، وهذا مما يجب التعامل معه بحساسية شديدة؛ حفظاً لمقام التوحيد، والدعاء ـ الذي هو مخ العبادة ـ هو لله وحده لا شريك له..

جاء في الحديث الشريف: "عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسلم ـ يَقُولُ: "**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾"[1]

***

(1) [سنن الترمذي/ 3247]

السؤال الثاني: لكن أليس الإمام السبكي يجيز التوسل والاستغاثة بسيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهذا قول كثير من الفقهاء على نية طلب الدعاء؛ أي: "يا رسول الله أغثني، أي ادعوا لي". أي: "ارزقني، أي ادعوا لي الله تعالى أن يرزقني"؟ هكذا يقول الأشاعرة.

الجواب: يرى الإمام السبكي ـ رحمه الله ـ أن: التوسل بجاه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والاستغاثة والاستعانة والتشفع به (كلها بمعنى واحد) ومقصود واحد، وهو على سبيل "التسبب" لاستجابة الله الدعاء، والله ـ جل جلاله ـ له "الخلق والإيجاد". هذا بإيجاز ما فهمته عنه. ولكن لا يجوز أن يقول الداعي: "يا رسول الله أغثني أو ارزقني" أياً كانت نية الداعي.

وبعض الأشاعرة يرون جواز الاستغاثة والتوسل بالأولياء والصالحين بعد موتهم، بشرط الاعتقاد بأن الفعل الحقيقي والخالق وحده هو الله سبحانه وتعالى، وأن الولي هو مجرد سبب (بناءً على مبدأ الكرامة). فما كان من خصائص الله (كخلق أو رزق): طلبه من غيره شرك. وما كان من طلب الشفاعة أو الدعاء (من الميت أو الحي): جائز توسلاً ورحمة.

والذي أراه: إنه وإن كان يجوز في مسألة التوسل بالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما جاء في سنن الترمذي: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ، مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِتُقْضَى لِيَ، **اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ**".. [قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب]

فهذا ـ كما نرى ـ دعاء لله ابتداء، يذكر فيه الداعي ما يتوسل به إلى الاستجابة، كدعاء وجاه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو مثل تقديم الصلاة عليه قبل الشروع في الدعاء، أو التوسل بعمل صالح كأصحاب الكهف، ونحو ذلك مما يُسأل به الله ـ جل جلاله ـ ويُتوسل إلى الدعاء به.

ورغم أن زيارة القبر الشريف عمل مستحب ومشروعة لذاتها، إلا إنها في النهاية عبادة لله، وسؤال لله وطاعة له بالصلاة على نبيه ـ عليه السلام ـ وصلاة لله، ينتفع بها العبد، وتكون مظنة الإجابة والبركة والمغفرة. قال العلاّمة النووي ـ رحمه الله: «عن نافع (أن ابن عمر كان إذا قدم من سفر دخل المسجد ثم أتى القبر فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه) رواه البيهقي والله أعلم، واعلم أن زيارة قبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم من أهم القربات وأنجح المساعي، فإذا انصرف الحجاج والمعتمرون من مكة استحب لهم استحباباً

متأكداً أن يتوجهوا إلى المدينة لزيارته صلى الله عليه وسلم وينوي الزائر مع الزيارة التقرب وشد الرحل إليه والصلاة فيه، وإذا توجه فليكثر من الصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم في طريقه»[1]

فالتوسل بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصيغ دعاء منضبطة هو محل اتفاق السادة العلماء من مختلف المذاهب الفقهية:

ومن صيغ الدعاء التي يقرها **السادة الأحناف..** جاء في فتح القدير: «اللهم أعط سيدنا عبدك ورسولك محمداً الوسيلة والفضيلة، والدرجة العالية الرفيعة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، وأنزله المنزل المقرب عندك، إنك سبحانك ذو الفضل العظيم. ويسأل الله تعالى حاجته متوسلاً إلى الله بحضرة نبيه عليه الصلاة والسلام. وأعظم المسائل وأهمها سؤال حسن الخاتمة والرضوان والمغفرة، ثم يسأل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشفاعة فيقول: يا رسول الله أسألك الشفاعة، يا رسول الله أسألك الشفاعة، وأتوسل بك إلى الله في أن أموت مسلماً على ملتك وسنتك»[2]

***

وكذلك عند **السادة الشافعية**، ما ذكره الإمام النووي: «ثم يتوجه [إلى قبر] رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويتوسل به في حق نفسه ويستشفع به إلى ربه ـ سبحانه وتعالى ـ ومن أحسن ما يقول ما حكاه الماوردي والقاضي أبو الطيب وسائر أصحابنا عن العتبي مستحسنين له قال: (كنت جالساً عند قبر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول: {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما} وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي... ولا يجوز أن يطاف بقبره ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويكره إلصاق الظهر والبطن بجدار القبر. قاله أبو عبيد الله الحليمي وغيره قالوا: ويكره مسحه باليد وتقبيله، بل الأدب أن يبعد منه كما يبعد منه لو حضره في حياته صلى الله عليه وسلم، هذا هو الصواب الذي قاله العلماء وأطبقوا عليه، ولا يغتر بمخالفة كثيرين من العوام وفعلهم ذلك.»[3]

---

(1) [«المجموع شرح المهذب» (8/ 272 ط المنيرية)]

(2) [«فتح القدير للكمال بن الهمام - ط الحلبي» (3/ 181)، ومثله في الفتاوى الهندية]

(3) [«المجموع شرح المهذب» (8/ 274 ط المنيرية)]

وقد ذكر الحكاية المشهورة عن العتبي أئمة التفسير منهم: الثعلبي في تفسيره (ت: 427 هـ)، والسخاوي في تفسيره (ت: 643 هـ)، والقرطبي في تفسيره (ت: 671 هـ)، وأبو حيان في تفسيره (ت: 754 هـ)، وابن كثير في تفسيره (ت: 774 هـ)، والسيوطي في الدر المنثور (ت: 911 هـ).

***

وعند **السادة الحنابلة**: يقول العلاّمة المحقق أبو الوفاء ابن عقيل (ت: 513 هـ) في كتاب الحج: «ويستحب له (للحاج) قدوم مدينة الرسول صلوات الله عليه، فيأتي مسجده فيقول، عند دخوله: بسم الله اللهم صل على محمد وآل محمد، وافتح لي أبواب رحمتك، وكف عني أبواب عذابك. الحمد لله الذي بلغ بنا هذا المشهد، وجعلنا لذلك أهلاً. الحمد لله رب العالمين. ثم يأتي حائط القبر فلا تمسه ولا تلصق به صدرك، لأن ذلك عادة اليهود، واجعل القبر تلقاء وجهك، وقم مما يلي المنبر، وقل: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد إلى آخر ما تقوله في التشهد الأخير، ثم تقول: اللهم أعط محمد الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود الذي وعدته، اللهم صل على روحه في الأرواح، وجسده في الأجساد كما بلغ رسالاتك، وتلا آياتك، وصدع بأمرك حتى أتاه اليقين. اللهم إنك قلت في كتابك لنبيك صلى الله عليه وسلم: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا} وإني قد أتيت بنبيك تائباً مستغفراً، فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبي الرحمة، يا رسول الله إني أتوجه بك إلى ربي ليغفر لي ذنوبي، اللهم إني أسألك بحقه أن تغفر لي ذنوبي.

اللهم اجعل محمداً أول الشافعين، وأنجح السائلين، وأكرم الأولين والآخرين. اللهم كما آمنا به، ولم نره، وصدقناه، ولم نلقه فأدخلنا مدخله، واحشرنا في زمرته، وأوردنا حوضه واسقنا بكاسه مشرباً صافياً روياً سائغاً هنيئاً لا نظمأ بعده أبداً غير خزايا ولا ناكبين، ولا مارقين، ولا مغضوب علينا، وضالين، واجعلنا من أهل شفاعته... ويصلي بين القبر والمنبر في الروضة، وإن أحببت أن تمسح بالمنبر، والجنانة وهو الجذع الذي كان يخطب عليه صلى الله عليه وسلم فلما اعتزل عنه حن إليه كحنين الناقة.»[1]

(1) [«التذكرة في الفقه على مذهب الإمام أحمد» (ص116)]

وفي المغني: «اللَّهُمَّ إنَّك قُلْتَ وقَوْلُكَ الحَقُّ: {وَلَوْ أَنَّهُم إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}. وقد أَتَيْتُكَ مُسْتَغْفِرًا من ذُنُوبِى، مُسْتَشْفِعًا بِكَ إلى رَبِّى، فأَسْأَلُكَ يَا رَبِّ أن تُوجِبَ لى المَغْفِرَةَ، كما أَوْجَبْتَهَا لمن أَتَاهُ فى حَياته، اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ أَوَّلَ الشَّافِعِينَ، وأَنْجَحَ السَّائِلِينَ، وأَكْرَمَ الآخِرِينَ والأَوَّلِينَ، بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. ثم يَدْعُو لِوَالِدَيْهِ ولإِخْوَانِه ولِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ»[1]

وفي العلل: «سَأَلته [أي الإمام أحمد] عَن الرجل يمس مِنْبَر النَّبِي - صلى الله عليه وسلم - ويتبرك بمسه ويقبله وَيفْعل بالقبر مثل ذَلِك أَو نَحْو هَذَا يُرِيد بذلك التَّقَرُّب إِلَى الله جلّ وَعز؟ فَقَالَ: لَا بَأْس بذلك»[2]

و"قال الإمامُ أحمدُ للمَرُّوذِيّ: يتوَسَّلُ بالنَّبِيّ صلى الله عليه وسلم، فى دُعائِه. وجزَم به فى «المُسْتَوْعِبِ»، وغيرِه. وجعَله الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ كَمَسْألةِ اليَمِين به. قال: والتَّوَسُّلُ بالإِيمانِ به وطاعَتِه ومَحَبَّتِه والصَّلاةِ والسَّلام عليه، وبدُعائِه وشَفاعتِه، ونحوِه ممَّا هو مِن فعْلِه أو أفْعالِ العِبادِ المأْمورِ بها فى حَقِّه، مَشْروعٌ إجْماعًا. وهو مِنَ الوَسِيلةِ المأْمورِ بها فى قولِه تعالى: {اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ}[3]

ويقول العلاّمة ابن الجوزي في التبصرة: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِالْخَلِيلِ فِي مَنْزِلَتِهِ، وَالْحَبِيبِ فِي رُتْبَتِهِ، وَكُلِّ مُخْلِصٍ فِي طَاعَتِهِ، أَنْ تَغْفِرَ لِكُلٍّ مِنَّا زَلَّتَهُ يَا كَرِيمُ برحمتك يا أرحم الراحمين.»[4]

وعندهم أيضاً **التبرك** بآثاره عليه الصلاة والسلام، جاء في صحيح مسلم: "عَنْ أَسْمَاءَ بِنْت أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا أَنَّهَا أَخْرَجَتْ جُبَّة طَيَالِسَةٍ، وَقَالَتْ: "كَانَ النبي - صَلى اللهُ عَليه وَسَلم - يَلْبَسُهَا **فَنَحْنُ نَغْسِلُهَا لِلْمَرضى يُسْتَشفَى بِهَا**[5]"[6]

(1) [«المغني» لابن قدامة (5/ 467)]

(2) [«العلل ومعرفة الرجال للإمام أحمد رواية ابنه عبد الله» (2/ 492)]

(3) [«الإنصاف للمرداوي» (5/ 420 ت التركي)]

(4) [«التبصرة لابن الجوزي» (1/ 124)]

(5) ولابن الجوزي في كتابه "الوفاء بفضائل المصطفى عليه الصلاة والسلام"، الباب التاسع والثلاثون من الجزء الرابع، يُسميه: "في ذكر الاستسقاء بقبره".

(6) [صحيح مسلم/ 2069]

وفي السير للذهبي: «قال عبد الله بن أحمد: رأيت أبي يأخذ شعرة من شعر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيضعها على فيه يقبلها. وأحسب إني رأيته يضعها على عينه ويغمسها في الماء ويشربه يستشفي به.

ورأيته أخذ قصعة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فغسلها في حب الماء ثم شرب فيها ورأيته يشرب من ماء زمزم يستشفي به، ويمسح به يديه ووجهه.

قلت: أين المتنطع المنكر على أحمد، وقد ثبت إن عبد الله سأل أباه عمن يلمس رمانة منبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويمس الحجرة النبوية فقال: لا أرى بذلك بأساً. أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج ومن البدع.»[1]

***

ومما يُستدل به في التبرك بالصالحين لدى مَن يرى جواز ذلك، ما جاء في طبقات الحنابلة: «قَالَ إِبْرَاهِيمُ الحَرْبِيُّ: قَبْرُ مَعْرُوفٌ التِّرِيَاقُ المُجَرَّبُ»[2]

وفي تاريخ بغداد: «حدثنا أبو الفضل عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد الزهري، قال: سمعت أبي يقول: قبر معروف الكرخي مجرب لقضاء الحوائج»[3]

وفي تاريخ الطبري، حروب الردة: «ثُمَّ بَرَزَ خَالِدٌ، حَتَّى إِذَا كَانَ أَمَامَ الصَّفِّ دَعَا إِلَى الْبِرَازِ وَانْتَمَى، وَقَالَ: أَنَا ابْنُ الْوَلِيدِ الْعود، أَنَا ابْنُ عَامِرٍ وَزَيْدٍ! وَنَادَى بِشِعَارِهِمْ يَوْمَئِذٍ، وَكَانَ شِعَارُهُمْ يَوْمَئِذٍ: يَا مُحَمَّدَاهُ!»[4]

وفي مناقب الإمام أحمد: « عن ابن بطة، يقول: قال لنا أبو بكر النجاد: بلغني أن من كانت به إضافة، فزار قبر أحمد بن حنبل يوم الأربعاء ودعا، رزقة الله سعة، فوجدت إضافة فزرته يوم الأربعاء»[5]

---

(1) [«سير أعلام النبلاء - ط الحديث» (9/ 214)]

(2) [«طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (2/ 479)]

(3) [«تاريخ بغداد» (1/ 445 ت بشار)]

(4) [«تاريخ الطبري» (3/ 293)]

(5) [«مناقب الإمام أحمد، باب فضيلة زيارة قبره، لابن الجوزي» (ص640)]

وكل ذلك لا نرى جوازه إطلاقاً، سداً للذريعة، والتزاماً بالسنة النبوية وآداب الدعاء؛ فالترياق المجرب هو **القرآن الكريم**، وزيارة قبور الصالحين هو للدعاء لهم، وتذكر سيرتهم العطرة، وجهادهم العظيم، وللعظة من الموت، وللحذر من الغرور بالدنيا، وتذكر الآخرة. وأما زيارة القبر الشريف لسيد الخلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ والدعاء عنده، فله خصوصية ليست لغيره.

***

وعند **السادة المالكية**: "روى القاضي عياض ابن حميد، قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكًا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له مالك: "يا أمير المؤمنين! لا ترفعْ صوتَك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدب قومًا فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية [الحجرات: 2]، ومدح قومًا فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ الآية [الحجرات: 3]، وذم قومًا فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ الآية [الحجرات: 3]، وإن حرمته ميتاً كحرمته حيًّا". فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله! أستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال: "ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلةُ أبيك آدمَ عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة! بل استقبِلْه، واستشفع به، فيشفعه الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية [النساء: 64]"(1)

***

وجاء في **الموسوعة الفقهية** الكويتية: "والاستغاثة بالخلق ـ فيما لا يقدرون عليه ـ تكون على أربع صور: أولها: أن يسأل الله بالمتوسل به تفريج الكربة، ولا يسأل المتوسل به شيئا، كقول القائل: اللهم بجاه رسولك فرج كربتي. وهو على هذا سائل لله وحده، ومستغيث به، وليس مستغيثا بالمتوسل به.

وقد اتفق الفقهاء على أن هذه الصورة ليست شركاً، لأنها استغاثة بالله تبارك وتعالى، وليست استغاثة بالمتوسل به؛ ولكنهم اختلفوا في المسألة من حيث الحل والحرمة على ثلاثة أقوال:

القول الأول: جواز التوسل بالأنبياء والصالحين حال حياتهم وبعد مماتهم. قال به مالك، والسبكي، والكرماني، والنووي ، والقسطلاني، والسمهودي، وابن الحاج، وابن الجزري.

---

(1) [«الشفا بتعريف حقوق المصطفى» ـ القاضي عياض] (2/ 41)]

واستدل القائلون بجواز الاستغاثة بالأنبياء والصالحين بأدلة كثيرة...

القول الثاني: أجاز العز بن عبد السلام وبعض العلماء الاستغاثة بالله متوسلاً بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والصالحين حال حياتهم. وروي عنه أنه قصر ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وحده. واستشهد لهذا بحديث الأعمى الذي دعا الله سبحانه متوسلاً برسول الله فرد الله عليه بصره...

القول الثالث: عدم جواز الاستغاثة إلا بالله سبحانه وتعالى، ومنع التوسل في تلك الاستغاثة بالأنبياء والصالحين ، أحياء كانوا أو أمواتاً. وصاحب هذا الرأي ابن تيمية، ومن سار على نهجه من المتأخرين."[1]

"**وفي التوسل بالنبي بعد وفاته:**

اختلف العلماء في مشروعية التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته كقول القائل: "اللهم إني أسألك بنبيك أو بجاه نبيك أو بحق نبيك"، على أقوال:

- ذهب جمهور الفقهاء (المالكية والشافعية ومتأخرو الحنفية وهو المذهب عند الحنابلة) إلى جواز هذا النوع من التوسل سواء في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أو بعد وفاته...

ـ ذهب تقي الدين بن تيمية وبعض الحنابلة من المتأخرين إلى أن التوسل بذات النبي صلى الله عليه وسلم لا يجوز... فقال ابن تيمية: فالتوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته، والسؤال بذاته، فهذا هو الذي لم يكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه، لا في حياته ولا بعد مماته، لا عند قبره ولا غير قبره، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة، أو عمن ليس قوله حجة...

ثم يقرر ابن تيمية أن هذه المسألة خلافية وأن التكفير فيها حرام وإثم.

ويقول بعد ذكر الخلاف في المسألة : ولم يقل أحد : إن من قال بالقول الأول فقد كفر، ولا وجه لتكفيره، فإن هذه مسألة خفية ليست أدلتها جلية ظاهرة، والكفر إنما يكون بإنكار ما علم من الدين بالضرورة، أو بإنكار الأحكام المتواترة والمجمع عليها ونحو ذلك. بل المكفر بمثل هذه

(1) [الموسوعة الفقهية ج4، ص 24، وما تلها باختصار]

الأمور يستحق من غليظ العقوبة والتعزير ما يستحقه أمثاله من المفترين على الدين، لا سيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم : "أيما رجل قال لأخيه: يا كافر فقد باء به أحدهما".

التوسل بالصالحين من غير النبي:

لا يخرج حكم التوسل بالصالحين من غير النبي عما سبق من الخلاف في التوسل به صلى الله عليه وسلم."[1]

***

(1) [الموسوعة الفقهية ج14، ص156 وما تلها باختصار]

السؤال الثالث: هل يمكن أن نطلب من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حوائجنا؟ ومَن دونه من الصالحين؟

الجواب: هناك فرق بين "التوسل" إلى الله بدعاء وبجاه نبيه، وبالصلاة على رسوله الأعظم.. طلباً لإجابة الله للدعاء. وبين الظن بأن رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ وغيره من الصالحين والأولياء في حياة البرزخ يسمعون دعاء المخلوقات ويستجيبون لهم! وحياة البرزخ، وحياة الأنبياء والشهداء والصالحين بعد مماتهم لا سبيل لنا للتعامل معها، والأنبياء والشهداء أحياء عند ربهم كما نص القرآن الكريم.

وهذه مسألة نشدد فيها: الظن بأن الأنبياء والصالحين ـ في قبورهم ـ يملكون نفعاً أو ضراً للإنسان، فالذي يملك النفع والضر هو الله وحده لا شريك له، قال تعالى لنبيه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 188]

وهذا الظن مما يُوقع العوام والجهلاء في صياغات من الدعاء شركية، واعتقادات وخرافات لا أصل لها.. فجعلهم ـ مثلاً ـ يكتبون حاجاتهم في قصاصات من الورق، ويلقون بها إلى الأضرحة والمقامات، وجعلهم يسألون صاحب الضريح حوائجهم، وجعلهم ينذرون إلى صاحب القبر، ويتعاملون معه على أنه "جهة عليا مبروكة" لها مقام خاص عند الله، هذه الجهة تتوسط لهم ـ وهم عالم البرزخ ـ عند الله!! فيتقربون ويدفعون ويطلبون من هذه الجهة أن تعزز هذه الواسطة لهم عند الله، وهذا لا شك بعيد جداً عن العقيدة والتصور الإسلامي، بل هو قريب من تصور النصارى عن أحبارهم ورهبانهم! ومتابعة لهم حذو النعل بالنعل! ففي المسيحية "سر الاعتراف والتوبة" أمام سلطة الكهنوت الكنسية، وطلب الشفاعة من الكاهن "الوكيل التوسلي" كما في الطوائف الكاثوليكية والأرثوذكسية.[1]

---

(1) ترفض "الطائفة البروتستانتية" مثل هذه السلطة لغفران الكاهن والاعتراف أمامه، وتعتقد أنه يُطلب ويُمنح مباشرة من الله بالتوبة والاعتراف الشخصي له (مع الاعتقاد في ربوبية المسيح عليه السلام!)، ونلحظ أن التفكير التقليدي المحافظ يمضي مع اتخاذ الوسطاء والشفعاء، والتفكير التحرري والاستقلالي يمضي مع التجريد الكلي والمسؤولية الفردية.

بينما التصور الإسلامي يقول:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186]

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60]

وفي الحديث الشريف: "عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ: "**اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ**"[1].

وقال تعالى في ابتغاء الوسيلة إليه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: 56-57]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 35]

فالوسيلة إلى الله هي: التقوى "الإيمان الخالص"، والعمل الصالح، وهذا هو مدار الدين كله.

***

(1) [صحيح البخاري/ 2448]

السؤال الرابع: مَن هم السادة العلماء الذين أنكروا البدع الحاصلة عند قبور الأولياء والصالحين قديماً وحديثاً، غير مدرسة العلاّمة "ابن تيمية" رحمه الله[1]؟

الجواب: لقد أنكر السادة العلماء البدع التي تحصل عند قبور الأولياء والصالحين مِن طلب الحوائج منها، ومن دعائها، ومن النذر والذبح لها، وحذروا من أفعال الجهلاء والدهماء والسفهاء، ومن هؤلاء:

العلاّمة عبد الكريم القشيري الأشعري المتصوف (المتوفى: 465 هـ) رحمه الله:

قال في تفسيره «من تعلّق قلبه بالمخلوقين فى استدفاع المضارّ واستجلاب المسارّ فكالسالك سبيل من عبد الأصنام إذ المنشئ والموجد للشيء من العدم هو الله سبحانه.»[2]

الإمام ابن الجوزي (المتوفى: 579 هـ) رحمه الله:

قال في كتابه تلبيس إبليس: «ومن عاداتهم زيارة المقابر في ليلة النصف من شعبان وإيقاد الدار عندها وأخذ تراب القبر المعظم. قال ابن عقيل: لما [ثقلت] التكاليف على الجهال والضغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم. قال: وهم كفار عندي بهذه الأوضاع، مثل: تعظيم القبور وإكرامها بما نهى الشرع عنه؛ من إيقاد النيران وتقبيلها وتخليقها، وخطاب الموتى بالألواح، وكتب الرقاع فيها "يا مولاي أفعل بي كذا وكذا"، وأخذ التراب تبركاً، وإفاضة الطيب على القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخرق على الشجر، اقتداء بمن عبد اللات والعزى»[3]

---

(1) مدرسة العلاّمة ابن تيمية ـ رحمه الله ـ متشددة غاية التشدد في هذا الأمر، فيَعتبر ابن تيمية أن التوسل بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد موته (أو التوسل بجاهه أو ذاته أو حقه) بدعة مستحدثة مُضلة، وقد تكون وسيلة إلى الشرك. فيقول: «وأما الزيارة البدعية؛ فهي التي يقصد بها أن يطلب من الميت الحوائج، أو يطلب منه الدعاء والشفاعة، أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أَجْوَبُ للدعاء. فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة لم يشرعها النبي صلى الله عليه وسلم، ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا عند غيره، وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك. فـ(الزيارة البدعية) التي في معنى الشرك كالذي يزور القبر ليسأله أو يسأل الله به أو يسأل الله عنده.» [«قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة» (1/ ص 34، 322)]

(2) [«لطائف الإشارات = تفسير القشيري» (2/ 86)]

(3) [«تلبيس إبليس» (ص354)]

الإمام فخر الدين الرازي (المتوفى: 606 هـ) رحمه الله:

يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لَا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: 18]

"وقولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فاعلم أن من الناس من قال: إن أولئك الكفار توهموا أن عبادة الأصنام أشد في تعظيم الله من عبادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فقالوا: ليست لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى! بل نحن نشتغل بعبادة هذه الأصنام، وأنها تكون شفعاء لنا عند الله تعالى. ثم اختلفوا في أنهم كيف قالوا في الأصنام إنها شفعاؤنا عند الله؟ وذكروا فيه أقوالا كثيرة:

فأحدها: أنهم اعتقدوا أن المتولي لكل إقليم من أقاليم العالم، روح معين من أرواح عالم الأفلاك، فعينوا لذلك الروح صنماً معيناً واشتغلوا بعبادة ذلك الصنم، ومقصودهم عبادة ذلك الروح، ثم اعتقدوا أن ذلك الروح يكون عبداً للإله الأعظم ومشتغلاً بعبوديته.

وثانيها: أنهم كانوا يعبدون الكواكب، وزعموا أن الكواكب هي التي لها أهلية عبودية الله تعالى، ثم لما رأوا أن الكواكب تطلع وتغرب.. وضعوا لها أصناماً معينة واشتغلوا بعبادتها، ومقصودهم توجيه العبادة إلى الكواكب.

وثالثها: أنهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الأصنام والأوثان، ثم تقربوا إليها كما يفعله أصحاب الطلسمات.

ورابعها: أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل، فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله تعالى، **ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر، على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله.**

وخامسها: أنهم اعتقدوا أن الإله نور عظيم، وأن الملائكة أنوار، فوضعوا على صورة الإله الأكبر الصنم الأكبر، وعلى صورة الملائكة صوراً أخرى.

وسادسها: لعل القوم حلولية، وجوزوا حلول الإله في بعض الأجسام العالية الشريفة.

واعلم أن كل هذه الوجوه باطلة بالدليل الذي ذكره الله تعالى، وهو قوله: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾."[1]

الإمام القرطبي (المتوفى: 671) رحمه الله:

يقول في تفسيره: «فَاتِّخَاذُ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ وَالصَّلَاةُ فِيهَا وَالْبِنَاءُ عَلَيْهَا، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَضَمَّنَتْهُ السُّنَّةُ مِنَ النَّهْيِ عَنْهُ مَمْنُوعٌ لَا يَجُوزُ، لِمَا روى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ. قَالَ التِّرْمِذِيُّ: وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَائِشَةَ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَرَوَى الصَّحِيحَانِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "إن أولئك إذا كان فيهم الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ". لَفْظُ مُسْلِمٍ.

قَالَ عُلَمَاؤُنَا: وَهَذَا يُحَرِّمُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا قُبُورَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْعُلَمَاءِ مَسَاجِدَ. وَرَوَى الْأَئِمَّةُ عَنْ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "لَا تُصَلُّوا إِلَى الْقُبُورِ وَلَا تَجْلِسُوا عَلَيْهَا" لَفْظُ مُسْلِمٍ. أَيْ لَا تَتَّخِذُوهَا قِبْلَةً فَتُصَلُّوا عَلَيْهَا أَوْ إِلَيْهَا كَمَا فَعَلَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، فَيُؤَدِّي إِلَى عِبَادَةِ مَنْ فِيهَا كَمَا كَانَ السَّبَبُ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

فَحَذَّرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ، وَسَدَّ الذَّرَائِعَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى ذَلِكَ فَقَالَ: "اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ".

وَرَوَى الصَّحِيحَانِ عَنْ عَائِشَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَا: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: "لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ" يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا.

(1) [«تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير» (17/ 227)]

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٌ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ. وَخَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ أَيْضًا عَنْ جَابِرٍ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صَلَّى أَنْ تُجَصَّصَ الْقُبُورُ وَأَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهَا وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهَا وَأَنْ تُوطَأَ. قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَرَوَى الصَّحِيحُ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: أَلَّا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ - فِي رِوَايَةٍ - وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا. وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ.

قَالَ عُلَمَاؤُنَا: ظَاهِرُهُ مَنْعُ تَسْنِيمِ الْقُبُورِ وَرَفْعِهَا وَأَنْ تَكُونَ لَاطِئَةً من حديث ابن عباس. وأما ثعلبة الْبِنَاءِ الْكَثِيرِ عَلَى نَحْوِ مَا كَانَتِ الْجَاهِلِيَّةُ تَفْعَلُهُ تَفْخِيمًا وَتَعْظِيمًا فَذَلِكَ يُهْدَمُ وَيُزَالُ، فَإِنَّ فِيهِ اسْتِعْمَالُ زِينَةِ الدُّنْيَا فِي أَوَّلِ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، وَتَشَبُّهًا بِمَنْ كَانَ يُعَظِّمُ الْقُبُورَ وَيَعْبُدُهَا. وَبِاعْتِبَارِ هَذِهِ الْمَعَانِي وَظَاهِرِ النَّهْيِ أَنْ يَنْبَغِيَ أَنْ يُقَالَ: هُوَ حَرَامٌ. وَالتَّسْنِيمُ فِي الْقَبْرِ: ارْتِفَاعُهُ قَدْرَ شِبْرٍ، مَأْخُوذٌ مِنْ سَنَامِ الْبَعِيرِ. وَيُرَشُّ عَلَيْهِ بِالْمَاءِ لِئَلَّا يَنْتَثِرَ بِالرِّيحِ.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ لَا بَأْسَ أَنْ يُطَيَّنَ الْقَبْرُ. وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: لَا يُجَصَّصُ الْقَبْرُ وَلَا يُطَيَّنُ وَلَا يُرْفَعُ عَلَيْهِ بِنَاءٌ فَيَسْقُطَ. وَلَا بَأْسَ بِوَضْعِ الْأَحْجَارِ لِتَكُونَ عَلَامَةً، لِمَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ الْأَثْرَمُ قَالَ: حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ حَدَّثَنَا نُوحُ بْنُ دَرَّاجٍ عَنْ أَبَانِ بْنِ تَغْلِبَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: كَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تَزُورُ قَبْرَ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ كُلَّ جُمُعَةٍ وَعَلَّمَتْهُ بِصَخْرَةٍ، ذَكَرَهُ أَبُو عُمَرَ. وَأَمَّا الْجَائِزَةُ فَالدَّفْنُ فِي التَّابُوتِ، وَهُوَ جَائِزٌ لَا سِيَّمَا فِي الْأَرْضِ الرِّخْوَةِ.

وَقَدْ قَالَ بِهِ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ هَذَا الِارْتِفَاعَ الْمَأْمُورَ بِإِزَالَتِهِ هُوَ مَا زَادَ عَلَى التَّسْنِيمِ، وَيَبْقَى لِلْقَبْرِ مَا يُعْرَفُ بِهِ وَيُحْتَرَمُ، وَذَلِكَ صِفَةُ قَبْرِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَقَبْرِ صَاحِبَيْهِ - رضي الله عنهما - عَلَى مَا ذَكَرَ مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّإِ وَقَبْرِ أَبِينَا آدَمَ صلى الله عليه وسلم، عَلَى مَا رواه الدارقطني»[1]

***

(1) [«تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن» (10/ 379)]

ومن المعاصرين:

الإمام محمد عبده (المتوفى: 1323 هـ الموافق 1905م) رحمه الله:

قال في تفسير المنار: «الشِّرْكُ أَنْوَاعٌ وَضُرُوبٌ، أَدْنَاهَا مَا يَتَبَادَرُ إِلَى أَذْهَانِ عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ الْعِبَادَةُ لِغَيْرِ اللهِ كَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ لَهُ، وَأَشَدُّهَا وَأَقْوَاهَا مَا سَمَّاهُ اللهُ دُعَاءً وَاسْتِشْفَاعًا، وَهُوَ التَّوَسُّلُ بِهِمْ إِلَى اللهِ وَتَوْسِيطُهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ تَعَالَى، فَالْقُرْآنُ نَاطِقٌ بِهَذَا، وَهُوَ الْمَشْهُورُ فِي كُتُبِ السِّيَرِ وَالتَّارِيخِ، فَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ، وَأَقْوَى مَظَاهِرِهِ الَّتِي يَتَجَلَّى فِيهَا مَعْنَاهُ أَتَمَّ التَّجَلِّي، وَهُوَ الَّذِي لَا يَنْفَعُ مَعَهُ صَلَاةٌ وَلَا صِيَامٌ وَلَا عِبَادَةٌ أُخْرَى.

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ هَذَا الشِّرْكَ قَدْ فَشَا فِي الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ، وَأَوْرَدَ شَوَاهِدَ عَلَى ذَلِكَ عَنِ الْمُعْتَقِدِينَ الْغَالِينَ فِي الْبَدَوِيِّ "شَيْخِ الْعَرَبِ" وَ"الدُّسُوقِيِّ" وَغَيْرِهِمَا لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ، وَبَيَّنَ أَنَّ الَّذِينَ يُؤَوِّلُونَ لِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ إِنَّمَا يَتَكَلَّفُونَ الِاعْتِذَارَ لَهُمْ لِزَحْزَحَتِهِمْ عَنْ شِرْكٍ جَلِيٍّ وَاضِحٍ إِلَى شِرْكٍ أَقَلَّ مِنْهُ جَلَاءً وَوُضُوحًا، وَلَكِنَّهُ شِرْكٌ ظَاهِرٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الشِّرْكِ الْخَفِيِّ الَّذِي وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْهُ، الَّذِي لَا يَكَادُ يَسْلَمُ مِنْهُ إِلَّا الصِّدِّيقُونَ، وَمِنْهُ أَنْ يَعْمَلَ الْمُؤْمِنُ الْعَمَلَ الصَّالِحَ مِنَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ تَعَالَى وَيُحِبُّ أَنْ يُمْدَحَ عَلَيْهِ أَوْ يَتَلَذَّذَ بِالْمَدْحِ عَلَيْهِ (مَثَلًا).»(1)

العلاّمة المظهري الصوفي الحنفي (المتوفى: 1225 هـ) رحمه الله:

يقول في تفسيره: «لا يجوز لأحد أن يقول فى أمر أفتى علماء الشرع على حرمته أو كراهته أن مشائخ الصوفية سنوا كذلك ونحن نتبع سنتهم! والصحيح أن الصوفية الكرام ما فعلوا قط على خلاف مقتضى الشرع وإنما الفساد من جهال اتباعهم، فلا يجوز ما يفعله الجهال بقبور الأولياء والشهداء من السجود والطواف حولها واتخاذ السرج والمساجد عليها، ومن الاجتماع بعد الحول كالأعياد ويسمونه عرساً، عن عائشة وابن عباس قالا لما نزل برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرض طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه، ويقول وهو كذلك: "لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" قالت تحذّر عن مثل ما صنعوا»(2)

---

(1) [«تفسير المنار» (5/ 68)]

(2) [«التفسير المظهري/ لمحمد ثناء الله المظهري» (2 ق 1/ 64)]

الشيخ محمد مصطفى المراغي المصري (1371 هـ الموافق 1952م) رحمه الله:

يقول في تفسيره: "روى أحمد والشيخان والنسائي قوله صلى الله عليه وسلم: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق يوم القيامة». وروى أحمد والطبراني: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ومن يتخذ القبور مساجد».

إلى نحو ذلك من الآثار الصحيحة، فليعتبر المسلمون اليوم بهذه الأخبار التي لا مرية فى صحتها، وليقلعوا عما هم عليه من اتخاذ المساجد فى أضرحة الأولياء والصالحين والتبرك بها، والتمسح بأعتابها، وليعلموا أن هذه وثنية مقنّعة، وعود إلى عبادة الأوثان والأصنام على صور مختلفة، والعبرة بالجوهر واللب، لا بالعرض الظاهر، فذلك إشراك بالله فى ربوبيته وعبادته، وقد حاربه الدين أشد المحاربة، ونعى على المشركين ما كانوا يفعلون.

اللهم ألهم المسلمين رشدهم، وثبتهم فى أمر دينهم، ولا تجعلهم يحذون حذو من قبلهم حذو القذّة بالقذة، وأرجعهم إلى مثل ما كان يفعله المسلمون فى الصدر الأول"[1]

***

(1) [«تفسير المراغي» (15/ 134)]

السؤال الخامس: هل لو قال مسلم عند الشدائد يا شيخ فلان، يا رسول الله، ونحو ذلك من الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين والأولياء، واعتقد أن الولي الميت ينفع فقد أشرك، بغض النظر عن اعتقاده فيه؛ أي سواء اعتقد أنه ينفع بإذن الله تعالى، أو دون إذن الله تعالى؟ وهل شرط الشرك هو الاعتقاد بأن الولي يقدر دون إذن الله ومشيئته؟

الجواب: نحن هنا لسنا بصدد تحقيق مناط الشرك على مُعين، وإنما بصدد تجنب الذريعة له، وبيان شكل الدعاء الصحيح، والممارسات الصحيحة. مسألة شرط الاعتقاد مسألة دقيقة لا نبحث فيها؛ لأننا بصدد الدعوة والتربية. حيث شرط الاعتقاد قد يُفضي إلى الإرجاء. والوقوع في الكفر هو كفر. ثم يتفرع بعدها، هل هو كفر عملي أكبر أم كفر عملي أصغر؟

فالكفر نوعان:

(الأول) **الكفر الاعتقادي**: وهو كفر التكذيب والجحود، أي: الانتساب لملة غير ملة الإسلام.

و(الثاني) **الكفر العملي** (للمنتسبين للإسلام)، وينقسم إلى:

(أ) **كفر عملي أكبر**، مثل أن يأتي المنتسب للإسلام أفعالاً تنافي أصل الإيمان، وهي التي حكم الكتاب على صاحبها بالكفر، مثل: الحكم بغير ما أنزل الله والإيمان بفصل الدين والشريعة عن شؤون الحياة، وولاية الكافرين المحاربين، واستحلال الحرام المجمع عليه، والسجود التعبدي لوثن، وسب الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومثل: اعتقاد النفع والضر في الميت، وأن له مشيئة وإرادة نافذة مؤثرة في إرادة الله تعالى، فمنها ما هو "قول اللسان"، ومنها ما هو "فعل الجوارح".

(ب) **كفر عملي أصغر**، مثل: أن يأتي المنتسب للإسلام أفعالاً لا تنافي أصل الإيمان ـ ولكنها تنقص منه ـ مثل الكبائر غير الشركية، كشرب الخمر، وارتكاب الزنا غير مستحل، والرياء، وكفران النعم، والبغي.

ويجب فيها جميعاً إنكار المنكر بوسائله الشرعية المعروفة، خاصة حالات الكفر العملي الأكبر للمنتسبين للإسلام عندما يقفزون على حكم الأمة المسلمة.. ويحاولون إبعادها عن دينها، وتسليمها لعدوها.[1]

---

(1) [للمزيد: انظر بحث: حكم مرتكب الكبيرة، وكتاب: توحيد الربوبية، ومقال: مجالات التكفير]

ومن جانب آخر: إننا لا نتعجل إخراج مسلم من الإسلام - وإنما نحذر من الممارسات الباطلة أو التي تكون ذريعة للشرك - يقول العلاّمة أبو حامد الغزالي (رحمه الله): "**والذي ينبغي أن يميل المحصل إليه الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلاً. فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم**".[1]

ويقول العلاّمة ابن تيمية (رحمه الله): "**إِنِّي مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ نَهْيًا عَنْ أَنْ يُنْسَبَ مُعَيَّنٌ إلَى تَكْفِيرٍ وَتَفْسِيقٍ وَمَعْصِيَةٍ، إلَّا إذَا عُلِمَ أَنَّهُ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ الرسالية الَّتِي مَنْ خَالَفَهَا كَانَ كَافِرًا تَارَةً وَفَاسِقًا أُخْرَى وَعَاصِياً أُخْرَى وَإِنِّي أُقَرِّرُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ خَطَأَهَا: وَذَلِكَ يَعُمُّ الْخَطَأَ فِي الْمَسَائِلِ الْخَبَرِيَّةِ الْقَوْلِيَّةِ وَالْمَسَائِلِ الْعَمَلِيَّةِ.**"[2]

ومشكلة هذه المسألة هو فتاوى العلماء والتأويل، والغلو في الأمر من الجهلاء والسفهاء، فتختلط بشكل يحتاج إلى تفكيك وتنقيح. لا سيما ومثل هؤلاء الناس يعتقدون أنهم متدينون ومتبعون للعلماء! فعندما تنظر إليها من كل أبعادها ستجد في النهاية أننا بحاجة إلى دعوة وتربية، وحكم على منهاج النبوة؛ يقضي على الدجاجلة وسُراق صناديق النذور، ومروجي الفتن والجهل، والعمل على رفع وعي الناس، وعندها ستنتهي المشكلة من جذورها بفضل الله.

وجدير بالذكر أن بعض السادة العلماء لم يرَ بأساً بهذه الصيغ من الدعاء! فيعتبرون دعاء المشركين دعاء ألوهية وتعبد، ودعاء المسلمين توسل واستشفاع. **وقد سُئل** العلاّمة شمس الدين الرملي (المتوفى: 1004 هـ): عما يقع من العامة من قولهم عند الشدائد يا شيخ فلان، يا رسول الله، ونحو ذلك من الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين والأولياء والعلماء والصالحين، فهل ذلك جائزاً أم لا، وهل للرسل والأنبياء والأولياء والصالحين والمشايخ إغاثة بعد موتهم وماذا يرجع بذلك؟

(**فأجاب**): بأن الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين والأولياء والعلماء والصالحين جائزة، وللرسل والأنبياء والأولياء والصالحين إغاثة بعد موتهم؛ لأن معجزة الأنبياء، وكرامات الأولياء لا تنقطع بموتهم، أما الأنبياء فلأنهم أحياء في قبورهم يصلون ويحجون كما وردت به الأخبار، وتكون الإغاثة منهم معجزة لهم، والشهداء أحياء شوهدوا نهاراً جهاراً يقاتلون الكفار، وأما الأولياء

(1) [الاقتصاد في الاعتقاد – أبو حامد الغزالي، ص135 ط دار الكتب العلمية]

(2) [مجموع الفتاوى (3/ 229)]

فهي كرامة لهم، فإن أهل الحق على إنه يقع من الأولياء بقصد وبغير قصد أمور خارقة للعادة يجريها الله تعالى بسببهم"[1]

وشمس الدين الرملي هو فقيه الديار المصرية في عصره، ومرجعها في الفتوى. يقال له: الشافعي الصغير.

ونُورد مثل هذه الفتوى ليس للموافقة عليها! ولكن للتحرز من التكفير والغلو فيه.

مع ملاحظة أنه ومن جانب آخر: حاولت الأنظمة الباغية الفاسدة استغلال سفه الناس وجهلها وممارستها البدعية الباطلة في تقزيم الدين في قضية "القبور" وما يفعله بعض جهلاء وبسطاء الناس عندها، وغلت فيها؛ لإشغال المسلمين عن قضايا أمتهم المصيرية، ولإسباغ الشرعية الدينية على أنظمة الحكم المنافقة الباطلة باسم "نقاء التوحيد"! كما استُخدمت أيضاً في رمي عموم الأمة بالشرك والردة واستباحة دمائهم وأموالهم!!

هذا وقد اطلعت على رسالة دكتوراه تتألف من حوالي ألفي صفحة، منسوبة لجامعة إسلامية شهيرة، ضَلّل فيها الباحث كافة علماء الأمة عبر العصور قديماً وحديثاً، واتهمهم بالقبورية والجهمية، فقال نصاً وبكل وقاحة وجرأة منقطعة النظير: "إن كثيراً بل أكثر من ينتمون إلى المذاهب الأربعة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة قبورية" وأكد أن القبورية هم: أهل الشرك صدقاً، عباد الأوثان بلا شك، أتباع المشركين الأولين بلا ريب!!

كما اطلعت على تحقيق لكتاب: "التذكرة في الفقه على مذهب الإمام أحمد للإمام ابن عقيل" ضَلّل فيه المُحقق صاحب المذهب، وجعل التوسل بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو "الشرك الأكبر"!

وعضو هيئة العلماء الأكبر جعل الأشاعرة من أهل الشرك والإلحاد على منهج مشركي قريش! وكل هذا غلو أحمق، وتيه بعيد، ومساحة آمنة تسمح بها الأنظمة الباغية ليطحن المسلمين بعضهم بعضاً، ويكون البأس بينهم لا على عدوهم.

***

(1) [الفتاوى الكبرى الفقهية، وبهامشه فتاوى الرملي، ج4، ص 382]

إذن.. وبدون النظر في اعتقاد الفاعل، هل مجرد طلب الحوائج من الميت شرك أكبر؟ أم يكون مشركاً إذا اعتقد أن المشفوع له شفاعة نافذة مؤثرة في إرادة الله تعالى؟

الجواب: لا شك أن الاعتقاد بأن المشفوع له شفاعة نافذة مؤثرة في إرادة الله تعالى هو شرك أكبر.

ومن جانب آخر: لا نستطيع أن نقول إن مجرد طلب الحوائج من الميت شرك أكبر هكذا بإطلاق، لا سيما مع فتاوى العلماء في التوسل والشفاعة والتبرك ونحوها. ومهما حاولنا الإمساك بها، فأنت تتعامل مع مسلم لا يخرج من الإسلام إلا بيقين كفري قاطع لا شبهة فيه ولا شك، فسنجد هنا يحضر: التأويل والتقليد والجهل والالتباس. فلا مفر من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى تكون الدولة للإسلام فيقضي على الممارسات البدعية والشركية والباطلة في حكمة وروية وهدوء.

قال العلاّمة الذهبي رحمه الله: «وَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ الْحُجْرَةِ الْمُقَدَّسَةِ ذَلِيْلاً، مُسْلماً، مُصَلِّيّاً عَلَى نَبِيِّه، فَيَا طُوْبَى لَهُ، فَقَدْ أَحْسَنَ الزِّيَارَةَ، وَأَجْمَلَ فِي التَّذَلُّلِ وَالحُبِّ، وَقَدْ أَتَى بِعِبَادَةٍ زَائِدَةٍ عَلَى مَنْ صَلَّى عَلَيْهِ فِي أَرْضِه، أَوْ فِي صَلاَتِه، إِذِ الزَّائِرُ لَهُ أَجْرُ الزِّيَارَةِ، وَأَجْرُ الصَّلاَةِ عَلَيْهِ، وَالمُصَلِّي عَلَيْهِ فِي سَائِرِ البِلاَدِ لَهُ أَجْرُ الصَّلاَةِ فَقَطْ، فَمَنْ صَلَّى عَلَيْهِ وَاحِدَةً، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْراً، وَلَكِنْ مَنْ زَارَهُ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ - وَأَسَاءَ أَدَبَ الزِّيَارَةِ، أَوْ سَجَدَ لِلْقَبْرِ، أَوْ فَعَلَ مَا لاَ يُشْرَعُ، فَهَذَا فَعَلَ حَسَناً وَسَيِّئاً، **فَيُعَلَّمُ بِرِفْقٍ، وَاللهُ غَفُوْرٌ رَحِيْمٌ**.

فَوَاللهِ مَا يَحْصُلُ الانْزِعَاجُ لِمُسْلِمٍ، وَالصِّيَاحُ وَتَقْبِيْلُ الجُدْرَانِ، وَكَثْرَةِ البُكَاءِ، إِلاَّ وَهُوَ مُحِبٌّ للهِ وَلِرَسُوْلِهِ، فَحُبُّهُ المِعْيَارُ وَالفَارِقُ بَيْنَ أَهْلِ الجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، فَزِيَارَةُ قَبْرِهِ مِنْ أَفْضَلِ القُرَبِ، وَشَدُّ الرِّحَالِ إِلَى قُبُوْرِ الأَنْبِيَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ، لَئِنْ سَلَّمْنَا أَنَّهُ غَيْرُ مَأْذُوْنٍ فِيْهِ لِعُمُوْمِ قَوْلِهِ - صَلَوَاتُ اللهُ عَلَيْهِ: (لَا تَشُدُّوا الرِّحَالَ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ).

فَشَدُّ الرِّحَالِ إِلَى نَبِيِّنَا صلى الله عليه وسلم مُسْتَلْزِمٌ لِشَدِّ الرَّحْلِ إِلَى مَسْجِدِه، وَذَلِكَ مَشْرُوْعٌ بِلاَ نِزَاعٍ، إِذْ لاَ وُصُوْلَ إِلَى حُجْرَتِه إِلاَّ بَعْدَ الدُّخُوْلِ إِلَى مَسْجِدِه، فَلْيَبْدَأْ بِتَحِيَّةِ المَسْجِدِ، ثُمَّ بِتَحِيَّةِ صَاحِبِ المَسْجِدِ - رَزَقَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ ذَلِكَ آمِيْنَ»[1]

---

(1) [«سير أعلام النبلاء» (4/ 484)]

وقال العلاّمة شهاب الدين الألوسي (المتوفى: 1270 هـ) رحمه الله:

في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: 35]

"استدل بعض الناس بهذه الآية على مشروعية الاستغاثة بالصالحين وجعلهم وسيلة بين الله تعالى وبين العباد والقسم على الله تعالى بهم بأن يقال: اللهم إنا نقسم عليك بفلان أن تعطينا كذا، ومنهم من يقول للغائب أو الميت من عباد الله تعالى الصالحين: يا فلان ادع الله تعالى ليرزقني كذا وكذا، ويزعمون أن ذلك من باب ابتغاء الوسيلة، ويروون عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: "إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور، أو فاستغيثوا بأهل القبور" وكل ذلك بعيد عن الحق بمراحل.

وتحقيق الكلام في هذا المقام أن الاستغاثة بمخلوق وجعله وسيلة بمعنى طلب الدعاء منه لا شك في جوازه إن كان المطلوب منه حياً، ولا يتوقف على أفضليته من الطالب بل قد يطلب الفاضل من المفضول، فقد صح أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ لما استأذنه في العمرة: «لا تنسنا يا أخي من دعائك».

وأمره أيضاً أن يطلب من أويس القرني ـ رحمة الله تعالى عليه ـ أن يستغفر له، وأمر أمته صلى الله عليه وسلم بطلب الوسيلة له كما مر آنفا وبأن يصلوا عليه، وأما إذا كان المطلوب منه ميتاً أو غائباً فلا يستريب عالم أنه غير جائز، وأنه من البدع التي لم يفعلها أحد من السلف، نعم.. السلام على أهل القبور مشروع، ومخاطبتهم جائزة فقد صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء الله تعالى بكم لاحقون يرحم الله تعالى المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين. نسأل الله تعالى لنا ولكم العافية، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم»

ولم يرد عن أحد من الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ـ وهم أحرص الخلق على كل خير ـ أنه طلب من ميت شيئاً، بل قد صح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه كان يقول إذا دخل الحجرة النبوية زائراً: "السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبت"، ثم ينصرف ولا يزيد على ذلك ولا يطلب من سيد العالمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو من ضجيعيه

المكرمين رضي الله تعالى عنهما شيئاً، وهم أكرم من ضمته البسيطة وأرفع قدراً من سائر من أحاطت به الأفلاك المحيطة..

نعم.. الدعاء في هاتيك الحضرة المكرمة والروضة المعظمة أمر مشروع، فقد كانت الصحابة تدعو الله تعالى هناك مستقبلين القبلة، ولم يرد عنهم استقبال القبر الشريف عند الدعاء مع أنه أفضل من العرش، واختلف الأئمة في استقباله عند السلام، فعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى أنه لا يستقبل بل يستدبر ويستقبل القبلة، وقال بعضهم: يستقبل وقت السلام، وتستقبل القبلة ويستدبر وقت الدعاء، والصحيح المعول عليه أنه يستقبل وقت السلام وعند الدعاء تستقبل القبلة، ويجعل القبر المكرم عن اليمين أو اليسار، فإذا كان هذا المشروع في زيارة سيد الخليقة وعلة الإيجاد على الحقيقة صلى الله عليه وسلم، فماذا تبلغ زيارة غيره بالنسبة إلى زيارته عليه الصلاة والسلام ليزاد فيها ما يزاد، أو يطلب من المزور بها ما ليس من وظيفة العباد؟؟!

وأما القسم على الله تعالى بأحد من خلقه مثل أن يقال: اللهم إني أقسم عليك أو أسألك بفلان إلا ما قضيت لي حاجتي، فعن ابن عبد السلام جواز ذلك في النبي صلى الله عليه وسلم لأنه سيد ولد آدم، ولا يجوز أن يقسم على الله تعالى بغيره من الأنبياء والملائكة والأولياء لأنهم ليسوا في درجته، وقد نقل ذلك عنه المناوي في شرحه الكبير للجامع الصغير، ودليله في ذلك ما رواه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح عن عثمان بن حنيف رضي الله تعالى عنه أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: ادع الله تعالى أن يعافيني، فقال: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال: فادعه فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويدعو بهذا الدعاء: "اللهم إني أسألك وأتوجه بنبيك ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبي الرحمة يا رسول الله إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي لي اللهم فشفعه في"، ونقل عن أحمد مثل ذلك...

وعلى نحو ذلك يخرج سؤال الثلاثة لله عز وجل بأعمالهم، على أن التوسل بالأعمال معناه التسبب بها لحصول المقصود، ولا شك أن الأعمال الصالحة سبب لثواب الله تعالى لنا، ولا كذلك ذوات الأشخاص أنفسها، والناس قد أفرطوا اليوم في الإقسام على الله تعالى، فأقسموا عليه عز شأنه بمن ليس في العير ولا النفير وليس عنده من الجاه قدر قطمير، وأعظم من ذلك أنهم يطلبون من أصحاب القبور نحو إشفاء المريض وإغناء الفقير ورد الضالة وتيسير كل عسير،

وتوحي إليهم شياطينهم خبر ـ إذا أعيتكم الأمور ـ إلخ، وهو حديث مفترى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بإجماع العارفين بحديثه، لم يروه أحد من العلماء، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم: عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن على ذلك فكيف يتصور منه عليه الصلاة والسلام الأمر بالاستغاثة والطلب من أصحابها؟! سبحانك هذا بهتان عظيم.

وعن أبي يزيد البسطامي قدس سره أنه قال: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون، ومن كلام السجاد ـ رضي الله تعالى عنه ـ أن طلب المحتاج من المحتاج سفه في رأيه وضلة في عقله، ومن دعاء موسى عليه السلام وبك المستغاث- وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «إذا استعنت فاستعن بالله تعالى، الخبر، وقال تعالى: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ [الفاتحة: 5].

وبعد هذا كله أنا لا أرى بأساً في التوسل إلى الله تعالى بجاه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند الله تعالى حياً وميتاً، ويراد من الجاه معنى يرجع إلى صفة من صفاته تعالى، مثل أن يراد به المحبة التامة المستدعية عدم رده وقبول شفاعته، فيكون معنى قول القائل: إلهي أتوسل بجاه نبيك صلى الله عليه وسلم أن تقضي لي حاجتي، إلهي اجعل محبتك له وسيلة في قضاء حاجتي، ولا فرق بين هذا وقولك: إلهي أتوسل برحمتك أن تفعل كذا إذ معناه أيضا إلهي اجعل رحمتك وسيلة في فعل كذا، بل لا أرى بأسا أيضا بالإقسام على الله تعالى بجاهه صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى، والكلام في الحرمة كالكلام في الجاه، ولا يجري ذلك ـ في التوسل والإقسام بالذات ـ البحت، نعم لم يعهد التوسل بالجاه والحرمة عن أحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

ولعل ذلك كان تحاشياً منهم عما يخشى أن يعلق منه في أذهان الناس إذ ذاك- وهم قريبو عهد بالتوسل بالأصنام شيء، ثم اقتدى بهم من خلفهم من الأئمة الطاهرين، وقد ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم هدم الكعبة وتأسيسها على قواعد إبراهيم لكون القوم حديثي عهد بكفر كما ثبت ذلك في الصحيح، **وهذا الذي ذكرته إنما هو لدفع الحرج عن الناس والفرار من دعوى تضليلهم - كما يزعمه البعض - في التوسل بجاه عريض الجاه صلى الله عليه وسلم**، لا للميل إلى أن الدعاء كذلك أفضل من استعمال الأدعية المأثورة التي جاء بها الكتاب وصدحت بها ألسنة

السنة، فإنه لا يستريب منصف في أن ما علمه الله تعالى ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ودرج عليه الصحابة الكرام - رضي الله تعالى عنهم - وتلقاه من بعدهم بالقبول أفضل وأجمع وأنفع وأسلم، فقد قيل ما قيل إن حقاً وإن كذباً بقي هاهنا أمران:

الأول: أن التوسل بجاه غير النبي - صلى الله عليه وسلم - لا بأس به أيضا إن كان المتوسل بجاهه مما علم أن له جاها عند الله تعالى كالمقطوع بصلاحه وولايته، وأما من لا قطع في حقه بذلك فلا يتوسل بجاهه لما فيه من الحكم الضمني على الله تعالى بما لم يعلم تحققه منه عز شأنه، وفي ذلك جرأة عظيمة على الله تعالى.

الثاني: أن الناس قد أكثروا من دعاء غير الله تعالى من الأولياء الأحياء منهم والأموات وغيرهم، مثل يا سيدي فلان أغثني، **وليس ذلك من التوسل المباح في شيء، واللائق بحال المؤمن عدم التفوه بذلك وأن لا يحوم حول حماه**، وقد عدّه أناس من العلماء شركاً وأن لا يكنه، فهو قريب منه، ولا أرى أحداً ممن يقول ذلك إلا وهو يعتقد أن المدعو الحي الغائب أو الميت المغيب يعلم الغيب أو يسمع النداء ويقدر بالذات أو بالغير على جلب الخير ودفع الأذى وإلا لما دعاه ولا فتح فاه، وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم، **فالحزم التجنب عن ذلك وعدم الطلب إلا من الله تعالى القوي الغني الفعال لما يريد.**"[1]

***

(1) [«تفسير الألوسي روح المعاني - ط العلمية» (3/ 294)]

السؤال السادس: ما هي آداب الدعاء، والصيغ الصحيحة له، وموجبات الاستجابة؟

من آداب الدعاء: حمد الله، والصلاة والسلام على رسول الله، ثم التوجه لله مباشرة بما يريد العبد، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186]

وإنَّ أعظم ما يتوسل به العبد في دعائه إلى الله، هو الصلاة على رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فمدار الدعاء إما: المغفرة، وإما طلب حاجة.. والصلاة على رسول الله هي مغفرة لذنوب العبد، وسبب لإجابة الحاجات، كما جاء في الحديث الشريف: عن أبي بن كعب: "قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ، فَقَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ، اذْكُرُوا اللَّهَ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ"، قَالَ أُبَيٌّ: "قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ فَقَالَ: "مَا شِئْتَ"، قَالَ: قُلْتُ: الرُّبُعَ؟ قَالَ: "مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"، قُلْتُ: النِّصْفَ؟ قَالَ: "مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"، قَالَ: قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ: "مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"، قُلْتُ: **أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا**،

قَالَ: "**إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ**".(1)

وعَن فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ، يَقُولُ: سَمِعَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : "عَجِلَ هَذَا"، ثُمَّ دَعَاهُ، فَقَالَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ: "**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ**".(2)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا**"(3)

(1) [سنن الترمذي/ 2457]

(2) [سنن الترمذي/ 3477]

(3) [سنن الترمذي/ 485، وصحيح مسلم]

ومما جاء من أحاديث شريفة في صيغ الدعاء:

ـ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عَلَّمَهَا هَذَا الدُّعَاءَ:

"اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ، وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا"(1)

ـ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ هَذَا مَا سَأَلَ مُحَمَّدٌ رَبَّهُ: **"اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَسْأَلَةِ، وَخَيْرَ الدُّعَاءِ، وَخَيْرَ النَّجَاحِ، وَخَيْرَ الْعَمَلِ، وَخَيْرَ الثَّوَابِ، وَخَيْرَ الْحَيَاةِ، وَخَيْرَ الْمَمَاتِ، وَثَبِّتْنِي وَثَقِّلْ مَوَازِينِي، وَحَقِّقْ إِيمَانِي، وَارْفَعْ دَرَجَاتِي، وَتَقَبَّلْ صَلاتِي، وَاغْفِرْ خَطِيئَتِي، وَأَسْأَلُكَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى مِنَ الْجَنَّةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فَوَاتِحَ الْخَيْرِ وَخَوَاتِمَهُ، وَجَوَامِعَهُ، وَأَوَّلَهُ، وَظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ، وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَى مِنَ الْجَنَّةِ آمِينَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا آتِي، وَخَيْرَ مَا أَفْعَلُ، وَخَيْرَ مَا أَعْمَلُ، وَخَيْرَ مَا بَطَنَ، وَخَيْرَ مَا ظَهَرَ، وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَى مِنَ الْجَنَّةِ آمِينَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَرْفَعَ ذِكْرِي، وَتَضَعَ وِزْرِي، وَتُصْلِحَ أَمْرِي، وَتُطَهِّرَ قَلْبِي، وَتُحَصِّنَ فَرْجِي، وَتُنَوِّرَ لِي قَلْبِي، وَتَغْفِرَ لِي ذَنْبِي، وَأَسْأَلُكَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى مِنَ الْجَنَّةِ آمِينَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُبَارِكَ لِي فِي نَفْسِي، وَفِي سَمْعِي، وَفِي بَصَرِي، وَفِي رُوحِي، وَفِي خَلْقِي، وَفِي خُلُقِي، وَفِي أَهْلِي، وَفِي مَحْيَايَ، وَفِي مَمَاتِي، وَفِي عَمَلِي، فَتَقَبَّلْ حَسَنَاتِي، وَأَسْأَلُكَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى مِنَ الْجَنَّةِ آمِينَ".**(2)

ـ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَالَ: لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ، كَانَ يَقُولُ:

"اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا"(3)

(1) [سنن ابن ماجه/ 3846]

(2) [المستدرك على الصحيحين/ (1 : 520)]

(3) [صحيح مسلم/ 2723]

ـ عَنْ بريدة بن الحصيب، قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ رَجُلًا يَدْعو وَهُوَ يَقُولُ: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**، قَالَ: فَقَالَ: "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى**"[(1)]

وجاء في الأثر: "الْزَمُوا هَذَا الدُّعَاءَ: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الأَعْظَمِ، وَرِضْوَانِكَ الأَكْبَرِ**".[(2)]

وفي طلب الحاجات:

ـ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ **يُعَلِّمُنَا** الاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلِ: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي**، قَالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ"[(3)]

ـ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**مَنْ كَانَتْ لَهُ إِلَى اللَّهِ حَاجَةٌ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ فَلْيَتَوَضَّأْ فَلْيُحْسِنْ الْوُضُوءَ، ثُمَّ لِيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ لِيُثْنِ عَلَى اللَّهِ وَلْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ثُمَّ لِيَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، لَا تَدَعْ لِي ذَنْبًا إِلَّا غَفَرْتَهُ، وَلَا هَمًّا إِلَّا فَرَّجْتَهُ، وَلَا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضًا إِلَّا قَضَيْتَهَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ**".[(4)]

(1) [سنن الترمذي/ 3475]

(2) [المعجم الكبير للطبراني/ 2959]

(3) [صحيح البخاري/ 1166]

(4) [سنن الترمذي/ 479، وبالسند مقال، وحسنه الحاكم]

ـ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ حَزَنٌ: **اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ غَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا**"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ؟، قَالَ: "أَجَلْ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ"[1]

وفي مغفرة الذنوب:

ـ عَنْ أَنَسِ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: "**قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**".[2]

ـ عَنْ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: **اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ،**

قَالَ: وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ"[3]

وفي حضور القلب في الدعاء:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**ادْعُوا اللَّهَ تَعَالَى وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ ـ جل جلاله ـ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**"[4]

---

(1) [مصنف ابن أبي شيبة/ 29808]

(2) [سنن الترمذي/ 3540]

(3) [صحيح البخاري/ 6306]

(4) [الدعاء للطبراني/ 62]

وفي التوكل على الله والأخذ بالأسباب:

ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَوْمًا، فَقَالَ: يَا غُلَامُ، "**إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**"(1)

ـ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**"(2)

ـ قال رجُلٌ لِلنَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أُرسِلُ ناقتي وأتوكَّلُ؟ قال: "**اعقِلْها وتوكَّلْ**"(3)

وفي الإلحاح في الدعاء:

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**"(4)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّهُ قَالَ: "**لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ**"، **قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الِاسْتِعْجَالُ؟، قَالَ يَقُولُ: "قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ**"(5)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ "**كَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ يَدْعُوَ ثَلَاثًا، وَيَسْتَغْفِرَ ثَلَاثًا**"(6)

---

(1) [سنن الترمذي/ 2516]

(2) [جامع الترمذي/ 2344]

(3) [صحيح ابن حبان/ 731]

(4) [صحيح البخاري/ 6340]

(5) [صحيح مسلم/ 2738]

(6) [سنن أبي داود/ 1524]

وفي التقوى والعمل الصالح:

ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وَقَالَ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ**"(1)

ـ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ**"(2)

***

(1) [صحيح مسلم/ 1016]

(2) [جامع الترمذي/ 2169]

الخلاصة:

1ـ هناك من السادة العلماء من أجاز التوسل بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الدعاء مثل العلامة السبكي، والنووي، والعز بن عبد السلام، وابن حجر العسقلاني، والكمال بن الهمام، وابن عابدين، وابن حجر الهيتمي، والألوسي وغيرهم (رحمهم الله).. على شكل الدعاء المذكور أعلاه. فيُعتبر التوسل بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد وفاته ركيزة أساسية في أدبيات زيارة القبر الشريف ضمن المذاهب السنية الأربعة، وقد تواردت نصوص كبار المحققين على إثبات جوازه بل استحبابه. فجمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والحنابلة والأحناف يرون جواز هذا النوع من التوسل على سبيل الدعاء والشفاعة.

2- هناك من السادة العلماء من أجاز التوسل بالأعمال الصالحة للأولياء الصالحين وأهل العلم والفضل مثل: العلاّمة السبكي، وابن حجر، والشوكاني، والصاوي المالكي، والسيوطي، والنووي، وهذا لا نرى جوازه لما يُفضي من ممارسات جاهلة وباطلة؛ وذلك سداً لذريعة الممارسات والأدعية الباطلة. وهو رأي العلاّمة العز بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ الذي يحصر التوسل فقط بالنبي عليه الصلاة والسلام؛ لأنه سيد ولد آدم وأن لا يقسم على الله بغيره من الأنبياء والملائكة والأولياء لأنهم ليسوا في درجته، وأن يكون مما خص به ـ عليه السلام ـ تنبيهاً على علو رتبته وسمو مرتبته.

3- فالتوسل قسمان، قسم يجيز التوسل بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على صيغة: "اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة، أتوسل برسول الله إلى الله أن..."، وهذا عليه جمع كثير من العلماء من مختلف المذاهب الفقهية، وقسم يجيز التوسل به وبغيره من أعمال الصالحين من العلماء والأولياء الأموات.. بنفس صيغة: "اللهم أني أتوسل بـ (فلان من الصالحين) إليك يا رب أن..." وهو محل خلاف.

ويتفرع عنه: من يعتقد النفع والضر في الميت، ويتوجه إليه بصورة عبادة لا تكون إلا لله، ولا تُطلب إلا من الله، وهذا ما يؤدي إلى الشرك والعياذ بالله. وهذه الحالة محل إنكار من جميع العلماء، حتى من شيوخ التصوف الصحيح والمعتدل.

4- إنَّ مسألة التوسل بالموتى من الصالحين تحولت ـ في بعض البلدان الإسلامية ـ إلى ظاهرة قبيحة باطلة، اختلط فيها اعتقاد الناس، وصيغ دعائهم، فمنهم من يعتقد أن الموتى تملك لهم النفع والضر، وتعلم الغيب، وتنفع بذواتها، وتملك أن تقضي حوائجهم، فيكتب الأحياء حوائجهم ويلقون بها إلى صاحب المقام، ومنهم من يطلب منه العون والمدد مما لا يُطلب إلا من الله، ويتقربون إليه بما يُتقرب به إلى الله، وهذا يؤدي إلى الشرك إن لم يكن شركاً بحد ذاته.

ولذا قال العلاّمة الشوكاني رغم إجازته للتوسل بالأنبياء والأعمال الصالحة للعلماء والصالحين: "اعلم أن الرزية كل الرزية والبلية كل البلية أمر غير ما ذكرنا من التوسل المجرد والتشفع بمن له الشفاعة، وذلك ما صار يعتقده كثير من العوام وبعض الخواص في أهل القبور، وفي المعروفين بالصلاح من الأحياء.. من أنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله ـ جل جلاله ـ ويفعلون ما لا يفعله إلا الله عز وجل حتى نطقت ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم، فصاروا يدعونهم تارة مع الله، وتارة استقلالاً ويصرخون بأسمائهم ويعظمونهم تعظيم من يملك الضر والنفع ويخضون لهم خضوعاً زائداً على خضوعهم عند وقوفهم بين يدي ربهم في الصلاة والدعاء، وهذا إذ لم يكن شركاً فلا ندري ما هو الشرك، وإذا لم يكن كفراً فليس في الدنيا كفر"[1]

5- مسألة الحكم على هؤلاء بالشرك الأكبر، مما لا ينبغي الإطلاق فيه، ولا التعميم.. لما يغلب عليهم من التقليد والجهل واختلاط الأفهام، والتباس المناط، وتضارب الأقوال، وفتاوى العلماء، وتنازع معاني النفع بإذن الله كرامة للوالي... إلخ. وحذراً من الغلو في التكفير، والاهتمام بتعليم الناس صحيح الدين بالحكمة والموعظة الحسنة.

6ـ إنَّ الأنظمة المنافقة الباغية في بلادنا تستغل حالة الغلو في الأولياء لدى الجماهير، والغلو في تكفيرهم في إشغال الأمة عن قضاياها المصيرية، وعن حقيقة وقوعها في أسر حكم العدو الأجنبي والعدو الداخلي، وإن قيام الحكم على منهاج النبوة، لا شك إنه سيقضي على مظاهر البدع هذه، ويحفظ مقام الأولياء والصالحين دون الغلو فيهم، ودون إقامة الموالد لهم (فلا تُتخذ القبور عيداً ولا يُبنى عليها مساجد)، والقضاء على الممارسات والسلوكيات المنحرفة؛ وسيبني الشخصية المسلمة الربانية الخالصة لله، المتوجهة بكليتها لله وحده لا شريك له. الشخصية المسلمة القوية بالله،

(1) [الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، ص 7، طبعة المنار]

المتفكرة في ملكوت الله، الملتجئة إلى الله، المتوكلة على الله، المتبعة سنن الله في كونه، والماضية على هدي نبيه صلى الله عليه وسلم.

7- المسلم يكون في حالتين: (حالة الفقيه)، و(حالة رجل الدولة على منهاج النبوة)..

في الأولى: لا يتعصب لمذهب، ولا يُغالي فيه، بل يُوقر ويحترم كل علماء الأمة وأئمة الدين، ويناقش جميع الأراء بمنتهى الموضوعية والشفافية والصرامة العلمية والأمانة المنهجية.

والثانية: يجب أن يكون رجل بناء وعمل، يأخذ الناس باللين والرفق والحكمة والتدرج، يراعي الأفهام، والسياقات، والعواقب، ويبني لهم وبهم صرح الحضارة الربانية، منشغل ببناء أمته وتحريرها وتزكيتها وتقويتها؛ لتكون مؤهلة لحمل رسالة الله للعالمين.

8- إنَّ الحاجة المادية لوجود مقام أو شاهد لصالح من الصالحين لطلب الحوائج منه أو جعله واسطة أو محطة لجوء أو هروب.. إنما يمثل حالة من تضعضع النفس الإنسانية، وتفككها، وتعلقها بالوهم والأسطورة والقدرة الخارقة للسنن التي تعوض حالة الذلة والاستضعاف والوهن؛ فتتحول إلى شخصية خاملة، ضعيفة، مُتدنِية، هاربة، تنتظر المخلص، والمعجزة "الكرامة"، يتملكها الخوف وقلة الحيلة، وتظهر هذه الحالة في البيئة الاستبدادية الظالمة التي تُعظم السلاطين والفراعين والطغاة، وحيث يتفكك المجتمع تحت وطأة القهر والظلم والجهل والخرافة.

فتتكون وتتفاعل هذه المكونات من: (ظلم الملوك والقهر والاستبداد، وتفكك المجتمع، وضياع مظاهر التدين الصحيح، وكثرة المشكلات، وانتظار المخلص الذي سيحرر الجماهير بينما هي تصفق له من بعيد دون أدنى مسؤولية أو تكليف، مع البحث عن "الخرافة" ـ كرامة ـ التي ستحل كل المشكلات بطريقة سحرية غامضة الأسباب! ثم يتحول الولي إلى مقام أعلى من مقام النبوة، ثم تبدأ مرحلة إسقاط التكاليف الشرعية، ثم استباحة المحرمات، ثم الحلول والاتحاد، وتتداخل هذه المحاور بين بعضها البعض، تارة بغلو، وتارة باعتدال، وتضيع الجماهير في هذه المتاهات والضلالات).

9- يجب تربية الناس على صحيح الدين، وآداب الدعاء النبوية، والسلوك الإسلامي الراقي الذي يُركز على: الإيمان الخالص، وتقوى الله، والعمل الصالح، وتزكية النفس، والقيام لله، وحمل رسالة الله للناس والشهادة عليهم بالحق والعدل الرباني، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذليلة للمؤمنين، عزيزة على الكافرين، قوية، شجاعة، عاملة، مُبادرة، لا تخاف في الله لومة لائم، آخذة بالسنن والأسباب متوكلة على الله لا متواكلة، ساعية لتمكين دين الله في الأرض، وحاشدة القوى اللازمة لذلك.

10- إنَّ الوسيلة إلى الله هي: التقوى والعمل الصالح، والتضرع والخشية، وحضور القلب خالصاً لله وحده لا شريك له.

***

تم بحمد الله